في محطة القطار

حلمي صابر – صفر 1445هـ

____



الانتظار

والسفر

والترحال

والغربة

محطات القطارات تعرفني

لم يعد يسألوا عن اسمي وحجزي ومكاني

صارت الأرض قطاراتي

وصارت القطارات أرضي

صِرتُ بلا اسم أو عنوانِ

تناسيتُ من أنا

نسيتُ من أنا، نسيتُ هويتي

عربي مسلم غريب في غربتي

كانت هويتي تهددني

توقفني محطات القطارات ؟!

أعرفُ لم أوقفتُ ! . كنت ضحية شخص فقد عقله

جعل الأرض تجاربا لتفجيراته

ثور هائج : لا عقل ولا بصر ولا تفكير

كذب بقوله : دليلُ تفجيرهِ من القرآن والسنة

الإسلام الذي يضبط الروح والجسد والهوى والعقل

حرَّفَ الإسلام ، وجعل تحريفه هواه

وهذا هو الضلال بعينه

وهل تفجير الأبرياء والطفل والمرأة والعجوز والرجل والمرأة والحيوان والبيت والإنسان

وهدم الأبرياء من الأوطان والبنيان والإنسان

له نص من القرآن ، بل النصُ ضدَّه

دعكَ من هذا

لم يكن حديثي عن هذا ، وليس هذا هو شأني .

قلتُ :

أوقفتني مرارا محطات القطارات ؟!

هادئا منتظرا قرارهم

أيدخلونني أرضهم ؟

أو انتظرتُ الرجوع بالقطار الثاني

تركتهم منتظرا ، وانشغلتُ بقلمي وريشتي وشأني ، ثم أدخلوني

حتى مرةً

رأيتُ فتاةً عربية تدمعُ عيناها ، والجوُ بارد ، والمطرُ بللها ، وبلَّلَ حقائبها

وكان صعبا على مثلي ألا يعرضَ عليها منديلا أو مواساة أو حنانا

رجلا كانت أو امرأة لا يهمني ؛ فبعض العربِ في البحار غرقى ، أو هاربون من الأوطانِ

يؤلمني من يبكي

لأنني أنا أيضا مثله أبكي

وهل يبكيك ما أبكاني ؟!

قصيدة أليمة يعاود صوتها في أذني

سألتها : ما بالُ دمعكِ يُمطِر ؟! هل يمكنني مساعدتك ؟

حتى أنني تساءلتُ : أهذا الماء من المطر ! ، أو الماء دمعكِ الذي حولكِ وحولي ؟!

كنت أريدُ أنْ أخفِفَّ عنها

رفعتْ رأسَها ونظرت في عيني، ولا زالت صامتة ثم خفضتْ رأسها ولم تجبني

قالتْ بازدراءٍ واحتقارٍ بعينيها الزيتونتينِ بلهجة حلبية : أرجوكَ ابتعدْ ودعني

اعتذرتُ لها وابتسمت ، وتركتها ؛

لا يضايقني غضبُ الناس مهما كان غضبهم ،

ولا يخرجني عن هدوئي ، كالأبله في رواية ديستويفسكي

وكما قالت العرب : رُبَّ كلمةٍ قالت لصاحبها دعني

وليست هذه الفراشة العربية في رواية لأجعلَ من ردِّها قصة ؛

فأنا مشغول بنفسي وقصتي وانفعالي

تركتها وابتعدتُ عنها

نسيتها ، وبنفسي ذكرتني

لم يسألني أحد لمَ أبكي

لم يسألني أحد أأنا جائع أو سأل هل مالٌ في جيبي

لم يسألني أحد أأنا حزين ؟! أم سأل عمَّا في قلبي وصدري

لم يسألني أحد لمَ هربتُ من نفسي عن نفسي

ولم أرِدْ أحدًا أن يسألني ، كأنني أقول لكل شخص بأدبٍ : أرجوكَ لوحدي دعني

غريب في الأوطانِ

وطني وضع القيود على لساني ويدي

احترمهم ، واحترمتهم ؛ وأيقنتُ أن ذلك ليس مكاني

فاغتربتُ عن وطني

صعبٌ عليَّ أن أكون محبوسا في نفسي ،

ربما كانت قصتك كقصتي ، ربما هي قصة كل امرئ عربي ؟!

نعم أنا تائهٌ ولكنني أعرف دربي

القرآن والسنة والصحابة كالقطار

منا من يركبه ويظل راكبا إلى آخر محطة

ومنا من يركبه ، ثم بعد قليل ينزل

ومنهم من يركب وينزل ، ويركب وينزل

وكثيرون يرونه ولا يركبون

ومنهم لا يريد أن يركب

وفي المقطورة نفسها ، الركابُ فيها على درجات وأحوال ومراتب

غريب في غربتي

تذكرتُ الفتاة وحقائبها

حقيبتي صغيرة على كتفي ؛ متاعي قليل : بنطالي وقميصي وما تحتهما ، وسجادتي

لا أكذبكَ ، قلتُ في نفسي

ليت تلك الفتاة العربية كانت معي

نرحلُ سويا

لكنها طردتني كما طردني وطني

وأنا في حديث مع نفسي ، لوَّحتْ طفلة صغيرة بيديها من نافذة القطار نحوي ، فلوحتُ لها فرحا بها، وما رأيتُ منها إلا بياضها وخدها الوردي المشمشي ، ربما كانت أيضا عربية تبحث بطفولتها عمَّن يأويها

واصلتُ السفرَ إلى المحطة التالية ،

وصارت القطارات بيتي

وصارت كل محطات القطار أوطاني

وكل الطيور أصحابي

وكل الشجر أوراقي

وفي فنادقها المؤقتة

ملتحفٌ بريشتي وأقلامي

لا أعلم غدا

أين أنا !

هل أنا هنا ، أو في مكانٍ ثانٍ

وقبل أنْ تغمضَ عينيَ للنوم ، رجوتُ :

عسى تلك الفراشة الحلبية في أمانِ

والطفلة المشمشة آوتْ إلى مكانِ

انتهى